مناطق الأهوار فى القسم الجنوبى من العراق

دراسة لبعض ظاهراتها من الناحيتين الطبيعية والبشرية

الدكتور ابراهيم شريف

مقدمة

توجد فى السهل الفيضى فى العراق مناطق واسعة تنخفض بعض الانخفاض عن المستوى العام لسطحه، وفى وقت الفيضان، وهو يحدث فى الربيع، تغمرها المياه، وفى الأوقات الأخرى من السنة تنحسر عن البعض منها كلياً، وتنحسر عن البعض الآخر جزئياً، ولكنها جميعها تحمل تسمية عامة هى الأهوار، وتوجد أكبر مناطقها اتساعا فى القسم الجنوبى منه، وهى ذات مياه دائمة، ويعيش فى جهاتها بعض من الناس، وهى وإن كانت جزءا من أرض العراق إلا أنها تعتبر مجهولة لكثير من جمهور العراقيين الذين يعيشون وراء حدودها، ويشعر المستمع إلى بعض من يتحدث منهم عنها بأن الحديث يجرى حول مجتمع بدائى يأكل أفراده الغرباء عنه، أو على الأقل يعضونهم، وإنصافاً للحقيقة يمكن القول بأنه مجتمع يعيش فى مستوى كبير للحضارة إذا كان مقياس التحضر هو قدرة المجتمع على تفهم مقومات بيئته واستغلالها كما ينبغى أن تستغل، وهم لا يأكلون الغرباء ولا يعضونهم، وإنما يكرمونهم بالغ الإكرام إذا أنسوا إليهم، والصورة غير الصحيحة عن سكان هذه الأهوار استمرت منطبعة فى ذهنى بعض الوقت حتى قرأت عنهم وتجولت بينهم متصلا ببعض منهم، وقد قرأت عن هذه المنطقة التى يدور البحث حولها كتابين ولم أعثر على كتب أخرى غيرهما، وأحدهما هو : Haji Rikkan, Marsh Arab, by Fulanain, London 1927. والمؤلف كتب فى الصفحة الأولى من كتابه بالخط الكبير عبارة «إلى محبوبتى فلانه»، ومن الواضح أن تسميته فلانين التى اتخذها المؤلف لنفسه تسمية مستعارة، وقد ذكر سير أرنولد ولسن A. Wilson فى قائمة مراجع كتابه Loyalties, Mesopotamia, Vol. I, — 1914 - 1917 Oxford University Press, 1936

الاسم الصحيح للمؤلف وهو : Hedgecock, S. E. & Mrs. وهذا الكتاب قيم ، ومؤلفه قوى الملاحظة وبارع فى التصوير ، وقد أعطى فيه الأهوار صورة تقرب من الحقيقة ، كما أنها توضح بعض نواحى الجغرافية الطبيعية وبعض نواحى الجغرافية الاجتماعية ، وقد أضاف إلى كتابه صوراً لتوضيح بعض الظاهرات ، كما ذكر بعض القصص الموضحة لها أيضاً ، والمنطقة التى زارها المؤلف وكتب كتابه عنها هى منطقة هور الحويزة وتقع فى شرق مجرى نهر دجله .

والكتاب الآخر هو : The Blood Feud, Lodon, 1937 ومؤلفه Captain C. F. Corry والمؤلف كان موظفاً بالبوليس العراق وكان مركزه فى مدينة الناصرية ، ويدخل ضمن دائرة نفوذه قسم كبير من هور الحمار ، وقد ساعدته وظيفته على زيارة بعض جهات هذا الهور والاتصال بسكانه ، وهو كرجل من رجال البوليس قد اهتم فى كتابه بذكر الخصومات التى تحدث بين بعض من السكان وبين بعض آخر ، كما اهتم بايضاح بعض أسبابها وبعض ملابساتها ونتائجها ، وهو فى هذه الحالة يعتبر مرجعاً قيما ، وهو وإن لم يعن بالنواحى الأخرى طبيعية كانت أو اجتماعية ، إلا أن الجغرافى يلمس فيه بعض صور عنها .

وقد قوت قراءة هذين المرجعين الرغبة فى نفسى على زيارة هذه المناطق من الأهوار والتعرف عليها ، وساعدنى على تحقيقها صديق الدكتور جميل سعيد الأستاذ بدار المعلمين العليا ببغداد ، وكان فضل الحكومة العراقية علينا كبيراً فإنها قد أرسلت إلى مصالحها هناك خطابات توصية بمساعدتنا والمحافظة علينا ، وفى مساء يوم الخميس ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨ ، ركبت وصديق من بغداد قطاراً متجهاً نحو البصرة وغادرناه فى محطة أور وأخذنا قطاراً آخر حملنا إلى الناصرية ، وهناك انضم إلينا صديق آخر هو الأستاذ تقى الشيخ راضى المفتش بمنطقة المعارف هناك ، وقد أفادتنا مرافقته كثيراً ، فهو بفضل لباقته وكثرة معارفه قد سهل لنا كثيراً من الصعوبات التى واجهتنا ، ومن الناصرية ركبنا سيارة إلى سوق الشيوخ ، ومن هناك استأجرنا زورقاً بخارياً صغيراً حملنا فى مجرى الفرات وفى بعض فروعه ، ثم عجز أخيراً عن السير عند مصب جدول المزلق فى بركة الحمار ، وقد تركناه وركبنا بعض الوقت فى هذه البركة مشحوفاً كان صاحبه يحركه بعصى طويلة تسمى المارد ،

الشيخ ثبان ابن الشيخ سالم الجبور
(وهو من خريجي كلية الحقوق ببغداد)

للشحوف
(قارب الأهوار ووسيلة مواصلاتها الوحيدة)

ولم أكن مطمئناً إلى ركوبه فهو طويل حقاً ، ولكنه ضيق جداً ، والجالس فيه ينبغي أن يمسك بما في جانبيه ليحفظ توازنه إن استطاع ، ولم يطل خوفي من السقوط في الماء فقد قابلنا زورق بخاري أصغر حجماً من الزورق الذي كنا نركبه أولا وقد استأجرناه ، واستمر تحت تصرفنا خلال المدة التي قضيناها في هور الحمار نزور بعض جهاته ، وبعض مراكز العراق فيه وهي كلها متشابهة في مظهرها ومصنوعة من القاب ، وخير دليل قابلناه هناك ، على أن النور قد غزا الظلمات التي تكتنف مناطق الأهوار ، كان شيخ يلبس عباءة وعقالا وشماغا[1] كما يلبس العرب من البدو ومن الفلاحين ، وعرفت أنه متخرج في كلية الحقوق ببغداد ، وهو الشيخ ثعبان ابن الشيخ سالم الحيون شيخ بني أسد في ناحية الجبايش ، وقد صاحبني بعض الوقت وشرح لي كثيراً من الظاهرات ، واستفدت كثيراً من ثقافته الواسعة عن مجتمع الأهوار .

وفي القرنه غادرنا الزورق البخاري واستأجرنا سيارة سارت بنا على الضفة اليمنى لنهر دجله إلى مدينة العمارة ، وهناك غمرنا السيد متصرف لواء العمارة بالكثير من فضله ، فقد أعارنا الزورق البخاري الخاص به ، كما تفضل وأمر بفتح بعض أبواب قنطرة جدول الكحلاء حتى يرتفع منسوب الماء فيه ويستطيع حمل الزورق إلى أبعد مسافة ممكنة من مجراه ، وقد حملنا إلى مضيف الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربي أكبر شيوخ قبيلة ألبو محمد ، وانني لأشعر بالعجز عن أن أصف كريم استقباله لنا وكريم ضيافته ، وكانت وجهتنا منطقة الشدة في داخل هور الحويزة ، ومن الحديث عرفت اننا قادمون إلى جهة مجهولة حقاً يعيش سكانها في داخل أهوارهم بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجي ، وربما لم يروا حقيقة مدنياً يلبس قاطاً مثل قاطي (أي بدلة مثل بدلتي) كما سمعت من بعض الأفراد ، ولم يروا أيضاً جملا كما سمعت من بعض آخر ، ومنطقة الشدة تدخل ضمن دائرة نفوذ الشيخ عباس ، وقد أخبرني بأنه لم يزرها منذ نحو سنتين وأنه سينتهزها فرصة ويرافقنا وقد تفضل وأوفى بوعده ، وسكان منطقة الشدة بطاء حقاً ، كنا نرى من بعيد أشباحهم في بعض القرى فإذا اقتربنا منها اختفت الأشباح وبدت

---

(١) الشماغ يسمى أيضا كفية ، وهو المنديل الذي يوضع فوق الرأس وتحت العقال .

القرية خالية ، ولكن العيون المتلصصة لا تلبث بعد أن ترى شيخها أن تظهر مرحبة أجمل ترحيب بالشيخ وبضيوفه ، وحالة التعاسة تبدو عليهم حقاً ، ولكنهم مع ذلك يضيفون بأحسن ما عندهم ويضيفون إليه حلو ترحيبهم ، وكان يومنا هناك شديد البرودة ، ومع ذلك فقد بدا بعض من أطفالهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وكذلك كان الرجال إلا من عباءة خفيفة من الصوف تسمى « بشت » ، وقد انتهت رحلتنا عند منطقة الشدة واستغرقت نحو ثلاثة أسابيع ، لقينا في أثنائها كل عون وكل رعاية من السكان ومن موظفي الحكومة ، وعبارات الشكر تقصر عن أن تفيهم بعض حقهم .

ومادة البحث الذي أقدمه قد جمعت بعضاً منها من هذه الرحلة وأخذت البعض الآخر من المرجعين المشار إليهما سابقاً ، واستعنت في تحديد أماكن بعض القبائل التي تسكن هناك بكتاب « مبادىء السوق وجغرافية العراق العسكرية » وهو تأليف العقيد الركن عبد اللطيف أمين وطبع ببغداد سنة ١٩٤٦ ، كما استعنت استعانات بسيطة ببعض كتب أخرى وبعضها قليل الأهمية من ناحية هذه الدراسة ، وسأشير إلى أهمها في بعض نقط من البحث .

الناحية الطبيعية

التكوين — الموقع — المنظر العام :

عند ما ظهرت منطقة اليابس حول مدينة البصرة ، وهي التي تكون جزءاً من اليابس الذي يكتنف في الوقت الحاضر جانبي مجرى شط العرب ، حصرت بينها وبين اليابس القديم في سهل العراق وهو الذي عرف باسم سهل بابل ، منخفضاً واسعاً مقتطعاً من الخليج الفارسي ، وفي التاريخ القديم عرف القسم الشرقي منه باسم أهوار سوسيانا وعرف القسم الغربي باسم الأهوار الكلدانية ، ثم أخذت مساحة هذا المنخفض تتقلص تدريجياً كما أخذ قاعه يرتفع بسبب ما انصب فيه خلال القرون الماضية من رواسب فيضانات أنهر كبيرة وجداول تنحدر إليه من الأراضي المرتفعة التي تكتنفه من بعض الاتجاهات ، وفي الوقت الحاضر تطلق على بقايا أهوار سوسيانا تسمية هور الحويزه ، كما تطلق على بقايا الأهوار الكلدانية تسمية هور الحمار ، وتسمية « الهور » تسمية عامة وتطلق على كل

مناطق المستنقعات فى السهل الفيضى فى العراق ، ولكنها تطلق أيضاً إطلاقاً خاصاً على المناطق الضحلة منها ، وهى المناطق التى ينمو فيها القصب (الغاب) والبردى (البوص والحلفا) وغيرهما من نباتات المستنقعات ، أما المناطق العميقة نسبياً ، وهى التى تخلو من هذه النباتات ، فإن عليها تطلق تسمية البرجه (البركة) ، ويمكن القول بأن عمق القسم الأكبر من هذه المستنقعات لا يتجاوز ثلاثة أقدام .

وهور الحويزة عظيم الاتساع وهو يمتد فى شرق نهر دجله بين مدينة العمارة وبين مقابل البصرة على شط العرب ، كما يمتد وراء الحدود السياسية فى داخل الأراضى الإيرانية ، وتنصرف إليه فى وقت الفيضان مياه نهر كرخه ونهر الطيب ونهر دويريج وبعض آخر من الجداول الصغيرة ، كما تنصرف إليه بعض مياه نهر كارون ، وهى كلها تنحدر إليه من جانب هضبة إيران ويكون وديانها مداخل إليه لبعض العناصر الفارسية والكردية التى تسكن فى الحافة الجنوبية لهذه الهضبة المشرفة عليه ، وينصرف إليه كذلك قسم كبير من مياه نهر دجله عن طريق كثير من الجداول ، وهى تكون مداخل أخرى إليه للعناصر العربية التى تسكن فى سهل العراق ، وأهم هذه الجداول هى الكحلاء والمشرح والمجرية ، والجدول الأخير يخرج من نهر دجله بالقرب من مدينة قلعة صالح ، أما الجدولان الأولان فإنهما يخرجان منه عند مدينة العمارة ؛ والكحلاء هى أهم الجداول التى تصرف بعض مياه نهر دجله إلى الحويزة ، وهى تحمل إليه نحو نصف المياه التى يحملها هذا النهر فوق منطقة تفرعها منه[1] ؛ وهى لذلك تبدو فرعاً كبيراً له وتضارعه فى اتساعه وهى مثله مجرى طبيعى ، وتشبهه فى ظاهرة تعرجاته ولوفاته (ثلياته) الكبيرة ، وتبدو ضفافها خلال مسافة تبلغ نحو ٤٠ ك م ، فيما بين العمارة وبين مسيعيده ، عالية وفوق مستوى الفيضان ، وفيها فتحات مختلفة الاتساع تصرف المياه الزائدة عن طاقتها فى وقت الفيضان إلى المنخفضات التى تقع وراء ضفافها ، وعلى هذه الضفاف يوجد من أشجار النخيل نطاقات قصيرة الامتداد وضيقة الاتساع ،

---

(١) يبلغ تصرف الكحلاء فى وقت الفيضان نحو ٢٠٠٠ م٣ فى الثانية وفى وقت الانخفاض ١٥٠ م٣ . ويبلغ تصرف نهر دجله أسفل منطقة التفرع ١٢٥٠ م٣ فى وقت الفيضان و١٥٠ م٣ فى وقت الانخفاض . راجع : Willcocks, Sir W; The Irrigation of Mesopotamia, London, 1917, P. 22

أما عند شواطىء المجرى نفسه فينمو الغاب والبوص وبعض من أشجار الصفصاف ومن أشجار الغرب (الحور)، ومسيعيده المشار إليها بلدة كبيرة وهي مركز ناحية [1] تنسب إليها، وعندها يخرج من الضفة اليمنى للكحلاء جدول الحسيجي متجهاً نحو الجنوب الشرقي ويصب في بركة كبيرة تقع شمال الضفة اليسرى لجدول المجرية، أما الكحلاء فإنها تستمر محتفظة ببعض اتساعها وبضفافها العالية إلى مضيف شيوخ قبيلة البو محمد، ثم تأخذ في الاضمحلال حيث تتوزع في جدولين رئيسيين يتجه أحدهما نحو الشمال ثم نحو الشمال الشرقي ويعرف باسم جدول الزبير، أما الآخر فيستمر في اتجاه الكحلاء نحو الجنوب الشرقي ويعرف باسم جدول أم الطوس، وتنصرف مياه كل منهما في النهاية إلى هور الحويزة، ويبدو جدول أم الطوس أكبر اتساعا، ولا يزال يبدو جدولا كبيراً وضفافه عالية بعض العلو إلا أنه يضعف تدريجياً بسبب ما يخرج منه من مياه خلال جداول أخرى وفتحات الري، ويبدو هذا الاضمحلال واضحاً عند مضيف آخر لآل بو محمد، ويقيم عنده الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربي كبير شيوخ هذه القبيلة، ومن هناك تحمل أم الطوس تسمية الأجرع، ويتلاشى ارتفاع ضفافها وتتوزع مياهها في جداول أخرى صغيرة لها تسميات مختلفة، وتنصرف في منخفضات تكتنفها.

وهور الحمار هو أوسع الأهوار في داخل حدود العراق وتقدر مساحته بنحو ٥٢٠٠ كم٢ [2]، وإليه تنصرف مياه نهر دجله، وحتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان ما ينصرف من مياه هذا الهور إلى الخليج الفارسي يجري في مجرى واضح بعض الوضوح لنهر الفرات، ويمتد خلاله مسافة نحو ١٠٠ كم إلى القرنة حيث كان يلتقي بالمياه الجارية في نهر دجله، ثم يحملهما معاً شط العرب إلى الخليج الفارسي، وكان هذا المجرى صالحاً للملاحة، وقد سلكه تشرفي بسفينته البخارية أثناء رحلته في سنة ١٨٣٦ ولكشف مجرى نهر الفرات،

(١) ينقسم العراق من الناحية الادارية إلى ألوية (مديريات) وكل لواء ينقسم إلى أقضية (مراكز) وكل قضاء ينقسم إلى نواحي، والناحية يرأسها موظف حكومي يسمى مدير الناحية، وهي تنقسم إلى قرى ورئيس كل قرية يسمى المختار.

(٢) الدكتور أحمد سوسه، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، الجزء الثاني، بغداد ١٩٤٥ الحاشية رقم ٢ ص ٢٧٢

أما فى الوقت الحاضر فإن القسم الأوسط منه فى داخل هور الحمار قد انطمر بعد أن اتخذت المياه لنفسها منفذاً فى ضفته اليمنى متجهة نحو الجنوب وغامرة مساحة واسعة من الأرض المنخفضة ومكونة ما يعرف محلياً باسم هور سناف ، وهناك اتخذت لنفسها منفذين رئيسيين إلى شط العرب ، ويعرف أحدهما باسم جرمة[1] على ، ويعرف الآخر باسم الماجدية[2] ، ومعظم المياه المنصرفه تجرى خلال المنفذ الأول ، ويجرى الفرات غير واضح المعالم خلال هور سناف إلا قبيل الجرمة ، والمياه المنصرفة خلال هذين المنفذين هى مياهه وحده ، أما مياه نهر دجله المنصرفة إلى هور الحمار فإنها تتجمع فى القسم الأدنى من المجرى القديم لنهر الفرات فى هذا الهور وتجرى فيه نحو القرنه منصرفة إلى شط العرب ، ولا يزال هذا القسم من المجرى محتفظاً بمظهره القديم وعلى الأخص فيما بين الجبايش وبين القرنه ، ويبدو أن سبب احتفاظه بمظهره يرجع الى أنه متأثر بحركات المد والجزر[3] التى تحدث فى الخليج الفارسى ويتأثر بها شط العرب .

ومقدمات هور الحمار تبدو جنوب خط يمتد بين العمارة وبين التاصرية ، ونحو نصف مياه نهر دجله تخرج من فتحات عديدة فى جانبه الأيمن وتجرى فى جداول مختلفة الاتساع وأهمها البتيرة والمجرى الكبير والمجرى الصغير[4] ، وهو يعرف أيضاً

---

(١) الجرمة هى النهر الكبير .

(٢) يقول ولكوكس عن سبب هذا التحول فى تصريف المياه (كان نهر الفرات قبل نحو ٣٠ سنة يتصل بنهر دجله عند القرنه ، وكان مجراه يحمل مياهه كما يحمل بعض مياه نهر دجله . ولكثرة هذه المياه وشدة ضغطها على جانبى المجرى حدثت كسرة فى الجانب الايمن واندفعت المياه خلالها غامرة منخفضاً واسعاً يقع وراءها ومكونة لنفسها مجرى آخر يصب فى شط العرب عند جرمة على . أما المجرى القديم فان الامواج قد حطمت جوانبه وعرتها ولا يزال بعض منها واضحاً وتدل عليه نكاتات من أشجار النخيل ومراكز للعمران . راجع Willcocks, Sir A.: The Irrigation of Mesopotamia op. cit. P. 37 ، وراجع أيضا الدكتور أحمد سوسه ، وادى الفرات ومشروع تنمية الهندية الجزء الثانى المرجع السابق ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(٣) كوردن هستد ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، تعريب جاسم محمد الخلف ، بغداد ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٢

(٤) دلت الأبحاث على أن مياه نهر دجله فوق العمارة بقليل تتوزع خلال القسم الأخير من فصل الصيف على النحو الآتى : ٢٦ ٪ تصرف بواسطة جدول البتيره ، ٣٥ ٪ بواسطة جدولى الكحلاء والشرح ، ٢٠ ٪ بواسطة جداول الطير والمجرى الكبير والجرية ، والباقى وقدره ١٩ ٪ يبقى فى نهر دجله جنوب فلة صالح . راجع كوردن هستد ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ — ١٥٦

باسم الطير ، وتصرف مياه هذه الجداول فى هور أبى القلام ومجموعة أخرى من الأهوار متصلة به ، وبعض من هذه المياه يتبع انحدار السطح فى جداول أخرى وينصرف إلى هور الحمار ، وقبل الحرب العالمية الأولى كانت مياه نهر دجله تفيض على جانبه الأيمن فى وقت الفيضان وتغمر الأراضى الواقعة وراءها وتصل بين هور الحمار وبين هور أبى الكلام ، إلا أن الإنجليز أثناء هذه الحرب قد قووا هذا الجانب ورفعوه ومدوا عليه خطاً لسكة الحديد فيما بين القرنه وبين العمارة ، وقد استمر هذا الخط بعض الوقت ثم أهمل ، إلا أن مكانه لا يزال مرتفعاً ويكون فى الوقت الحاضر جزءا من طريق السيارات الممتد بين بغداد وبين البصرة عن طريق الكوت والعمارة [1] ، وينصرف بعض آخر من مياه نهر دجله إلى هور الحمار عن طريق شط البدعة وهو أحد المصبين الرئيسيين لشط الغراف [2] (يعرف أيضاً باسم شط الحى) ، ومن المعروف أن هذا الشط فرع كبير لنهر دجله وقد أنشئت سدة (قناطر) الكوت لتنظيم توزيع المياه بينهما .

أما مياه نهر الفرات ، جنوب الناصرية ، فإن بعضاً منها ينصرف خلال عدد من الجداول مختلفة الاتساع إلى منخفضات تتصل فى وقت الفيضان بهور الحمار ، وأهم الجداول التى تتفرع منه فيما بين الناصرية وبين سوق الشيوخ ، جدول عكيكة ، وهو يعرف أيضاً باسم جدول السفر ، وهو جدول كبير يخرج من جانبه الأيسر فوق سوق الشيوخ بنحو ٧ ك م ؛ ويقال أنه كان قبل الحرب العالمية الأولى مهما فى نقل الاتصالات بين البصرة وبين الناصرية [3] خلال هور الحمار ، إلا أن القبائل التى تسكن على ضفافه كانت غير مستقرة ، وقد سببت الاضطرابات التى أحدثتها عرقلة فى استمرار سير هذه الاتصالات .

أما المجرى الأصلى لنهر الفرات فإنه يمر بسوق الشيوخ ، وهى تقع على جانبه الأيمن ، وبعدها بنحو ٧ ك م . وعند مركز ناحية الجرمه تتوزع مياهه فى فرعين رئيسيين ، يتجه أحدهما نحو الجنوب الشرقى ويعرف باسم جرمة أم نخلة ويتجه

(١) العقيد الركن عبد المطلب أمين ؛ مبادىء السوق وجغرافية العراق العسكرية ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٥٢

(٢) الدكتور أحمد سوسه ؛ تطور العراق ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٣١

(٣) Admiralty War Staff; All and book of Mesopotamia, vol. 2, London, 1917, PP 114--15 & 134—6

الآخر نحو الشمال الشرقى ويعرف باسم جرمة بنى سعيد ، وفيما بينها يوجد مجرى ثالث، ولكنه منطمر ومأخذه مغلق بسداد من الطين ، ويعرف هذا المجرى المنطمر باسم الحفار ، وانطماره حديث ، فإن القوات العسكرية الإنجليزية قد اهتمت به أثناء الحرب العالمية الأولى فطهرته من الرواسب وعمقته وجعلته صالحاً لسير زوارقها وبعض سفنها أثناء تقدمها نحو الناصرية ، إلا أن حفره وتعميقه قد ترتب عليه أن انصرف إليه بعض المياه التى كانت تنصرف قبلا إلى جرمة أم نخلة وإلى جرمة بنى سعيد ، فأضر ذلك بحقول الشلب (الأرز) الواسعة على هاتين الجرمتين ، وقد اضطرت الحكومة العراقية الى سده عندما ارتفعت شكوى القبائل صاحبة هذه الحقول .

واتساع نهر الفرات فيما بين الناصرية وبين الجرمة ، وهى مسافة تبلغ نحو ٤٥ كم. يتراوح بين ١٣٠ — ١٨٠ متراً ، وضفافه عالية بعض العلو وعليها نطاق من النخيل غير متسع ، وعلى شواطئه تنمو شجرات من الغرب (الحور) والصفصاف وبعض القصب (الغاب) ، ويقطع ضفافه كثير من فتحات الجداول ، وهى تستخدم فى وقت الفيضان لتصريف المياه الزائدة عن طاقته الى الأراضى المنخفضة وراءها ، أما فى وقت الانخفاض فإنها تسد لحفظ مياهه من التبدد ، وتروى المزروعات منه فى هذا الوقت بواسطة المضخات وبواسطة الناعورات وهى تدار غالباً بواسطة الخيل .

والطريق الذى سلكته من الجومة الى بركة الحمار هو طريق جرمة بنى سعيد ، وهذه التسمية لا تطلق على كل المجرى وإنما تغلب على قسمه الواقع فى ديرة قبيلة بنى سعيد ، أما بعد ذلك وخلال ديرة قبيلة آل جوبير وبعض قبائل أخرى ، فإنها تحمل تسمية المزلق (المزلج) ، ومجرى جرمة بنى سعيد ضيق وضفافه قليلة الارتفاع ، ويبدو شريط النخيل النامى عليها هزيلا وغير كامل الاتصال ، وفى المناطق التى ينقطع فيها تبدو الضفاف واطئة ومعرضة لطغيان المياه عليها ، ووراءها تبدو أراضى أكثر انخفاضاً وفيها بعض المياه ، أما المزلق فمجراه أكثر ضيقاً وضفافه أكثر انخفاضاً ولا أثر عليها لأشجار النخيل ، وهو يزداد ضيقاً وتختفى معالم ضفافه قبيل مصبه فى بركة الحمار بالقرب من قرية بنى اسماعيل ، وهناك كانت مياهه ضحلة بالدرجة

التى عجزت عن أن تحمل زورقاً بخارياً صغيراً خلال مصبه فى هذه البركة، ويلاحظ أن هذا كان فى أوائل شهر فبراير وكانت بعض المياه من أمطار الشتاء قد جرت فيه، ولقد اضطررت أنا وزملائى الى ترك هذا الزورق وركوب مشحوف[1] حملنا بعض الوقت فى بركة الخمار حتى حملنا زورق بخارى آخر، وبركة الخمار سطح واسع من الماء وتخلو معظم أجزائها من القصب والبردى والنباتات الأخرى، وتبدو ضفافها بعيدة نحو الأفق وعندها تعلو سيقان أشجار النخيل وتدل على وجود بعض مراكز للعراق مثل القهود والخمار والبوشامة ومخفروانه، وقبيل نهايتها نحو الشرق سلك الزورق طريقه خلال مجرى ضيق وقليل العمق، إلا أنه محدد بعض التحديد، وقد أخذ يزداد اتساعا وعمقاً بالاقتراب من مركز ناحية الجبايش.

والجبايش بلدة كبيرة وعندها يبلغ اتساع مجرى الفرات نحو ٥٠ متراً، إلا أن ضفافه لا تزال منخفضة ومعرضة للغرق فى وقت الفيضان، ويميزها نطاقان من الغاب ولا يرى عليها النخيل إلا عند الأجزاء العامرة منها، ويزداد مجرى النهر اتساعا نحو القرنة كما تزداد جوانبه تمدداً وارتفاعا، وتبدو عليها نطاقات من النخيل تزداد اتصالا واتساعا بالاقتراب من المدينة، وهى قرية كبيرة، وبعدها يشرد الفرات بعض مظاهر عنفوانه، وتمتد أشرطة النخيل على ضفافه أكثر اتصالا وأكبر اتساعا ولا تنقطع إلا عند الفتحات، ومعظم المياه المنصرفة منه هناك تخرج من فتحات فى جانبه الأيمن وتنصرف الى شط العرب خلال جدول يعرف باسم الشافى، أما الجداول التى ترى على جانبه الأيسر فإنها مغذية له وتحمل اليه بعض مياه نهر دجله، ومن الملاحظ أن مجرى المياه فى وقت الانخفاض يقترب كثيراً من الضفة اليمنى ويلاصقها مباشرة فى بعض المناطق، بينما تبدو الضفة اليسرى

(١) المشحوف تسمية عامة لأنواع من القوارب تتميز بأنها مطلية بالقار وبأنها طويلة الامتداد وضيقة الاتساع بحيث لا يمكن لشخصين أن يجلسا فيها متجاورين، كما تمتاز بأن مقدمتها مرتفعة كثيراً وكذلك مؤخرتها لحد ما، وهى تحرك بالمجاديف وهى قصبة قوية وطويلة وتستعمل كاستعمال المجدرة. ويعرف أكبر أنواعها باسم البركاش وأصغرها باسم الشلبية، ومنها الطرادة وهى تستعمل فى الحروب وفى الغزو وتمتاز بطولها الذى قد يصل إلى نحو ٩ أمتار وتحمل ٦ أشخاص يجلس الواحد منهم وراء الآخر لأنها ضيقة أيضاً ولا يتجاوز اتساعها متراً، وهى متينة الصنع ومثبتة بمسامير تبدو رؤوسها الغليظة فى داخلها مكونة صفوفا متوازية، والأكبر من المشحوف يسمى البلم وهو قارب صغير يشبه القوارب المصرية، وله شراع وهو عادة غير مطلى بالقار، وبعض أنواعه يطلى بالقار ويسمى كلمة.

بعيدة عنه ، وعلى الشطوط الواقعة بينهما كانت قطعان من الحيوان ، وكثير منها من البقر ، ترعى فى مخلفات حقول كانت مزروعة بالذرة البيضاء وبعض أنواع من الدخن .

وتتسع مساحة الأهوار تدريجياً عند وصول مياه الأمطار الشتوية ، إذ تحمل الجداول من الأنهار بعضها الى المنخفضات وتصل بين البعض منها وبين البعض الآخر ، وعند ما تصل مياه الفيضان الناتجة من ذوبان الثلوج فوق مرتفعات هضبة أرمينيا فى فصل الربيع ، تأخذ هذه الأهوار ذروة اتساعها ، إلا أن عمق مياهها لا يزداد إلا قليلا ، وربما لا يتجاوز الفرق بين أخفض مستوى لها وبين أعلاه عن ٣ متر ، ولكنه ارتفاع كاف لأن يحول مظاهرها الى مظاهر بحيرة عظيمة الاتساع تنطمس تحت مائها معالم الجداول الصغيرة وبعض من الجداول الكبيرة ، كما يختفى كثير من الجزر غير العامرة بالسكان ، ولا يبدو على سطحها إلا أطراف القصب وبعض سيقانه ، وكذلك الجزر الكبيرة العامرة بالسكان وتشير إليها أشجار النخيل النامية على سطحها ، وحتى فى هذه الجزر تتدخل المياه فى المنخفضات وتفصل بين الأكواخ ، ويكون الانتقال بين البعض منها وبين البعض الآخر بواسطة الأنواع الصغيرة من المشاحيف .

ويحدث قدوم مياه الفيضان ثورة فى الأهوار ، فرعاة الجاموس يحرقون الشائخ من الغاب والبردى فى فصل الشتاء حتى لا يشارك النبت الجديد الذى يخرج من الجذور فى التغذى بالدهلة (الغرين) التى تحملها مياه الفيضان ، وزراع الشلب (الأرز) يبذرون حبه فى مبادر (مشاتل) استعداداً لنقل الشتال وزرعها فى بعض المناطق عند حافات الهور ، وهم يحرقون أيضاً بعض مناطق الغاب والبردى ويطهرونها لإضافتها الى الأراضى التى يمكن زراعتها بالأرز ، وزراع الذرة البيضاء والدخن يعدون المبادر لها أيضاً استعداداً لزراعتها فى مناطق أخرى عند حافة الأهوار ، وزراع الدخن (الحنطة والشعير) يقيمون سداداً حول جوانب حقولهم التى يخشى من طغيان مياه الفيضان عليها ، كما يطهرون الجداول والقنوات التى تحمل اليها المياه لريها . وفى هذا الوقت أيضاً يزداد نشاط الصيادين ، فالطيور البرية تأتى مهاجرة فى أعداد كبيرة يدفعها البرد من الجهات الشمالية ،

وهناك تجد غذاءها وافراً من الأسماك الصغيرة ومن الحبوب المزروعة وسيقانها الغضة ، ومياه الفيضان تأتى حاملة كميات كبيرة من الأسماك الصغيرة والكبيرة ، ومنها الأسماك التى كانت قد صعدت من الأهوار فى الأنهار لتضع بيضها ، وفيه أيضاً يزداد النبات الغض ويجد الجاموس فيه غذاءا طيباً له كما يغطى سطح البرك ونحوها بنباتات عالقة وذات أزهار مختلفة .

وكما تتسع مساحة الأهوار تدريجياً فى وقت الارتفاع تقل مساحتها تدريجياً كذلك فى وقت الانخفاض ، وكما سبقت الإشارة تنصرف بعض مياه هور الحمار خلال منافذه الى شط العرب ونحو القرنة ، أما هور الحويزة فإن بعض مياهه يعود ثانية الى نهر دجله خلال بعض الجداول التى تتصل به جنوب قلعة صالح ، وهى من الجداول التى حملت فى وقت الفيضان قسما من مياهه الى هذا الهور . وينصرف بعض آخر منها الى شط العرب خلال منافذ أخرى وأهمها فتحة السويب ، وفى فصل الصيف وفصل الخريف تتمثل ظاهرات الأهوار واضحة ، وتتميز فيها مناطق البرجات (البرك) ، وهنا وهناك تبدو جزر كثيرة مختلفة الاتساع والارتفاع ، والبعض منها عامر بالسكان والبعض الآخر غير عامر يستغله السكان فى زراعة بعض الغلات ويتخذون القليل منه كمقابر لدفن موتاهم دفناً مؤقتاً حتى يتيسر نقلهم الى النجف أو الى كربلا ، وعدا الجزر المرتفعة بعض الارتفاع : تبدو من قاع الأهوار على السطح مناطق وتفصل بعض أجزاء منها وبين بعض آخر ، كما تتضح بعض الوضوح ضفاف ما لا حصر له من الجداول كبيرة وصغيرة ، وهى كثيرة الانثناءات والتعرج ، وتكون مجاريها الدروب والمسالك التى يتخذها السكان فى تنقلهم بين جهة وبين أخرى فى داخل الأهوار وبينها وبين العالم الخارجى وراء حافاتها ، وينمو الغاب والبردى كثيفاً على ضفاف هذه الجداول ، ويبدو كالأسوار العالية تحجب ما يجرى فى المجرى الواحد منها عما وراءه ، كما تحجب عنه أشعة الشمس من جهة الشرق ومن جهة الغرب ، ويكون المجرى معتما على الأخص اذا كان الماردى هو النامى على ضفافه ، والماردى هو عملاق الأهوار ، وهو نوع من الغاب يرتفع الى نحو ٥ر٧ متراً ، وفيما بين ضفاف بعض الجداول وبين بعضها الآخر توجد أحياناً برجات خالية من الغاب والبردى ، وتوجد أحياناً أخرى مناطق من الأهوار تنمو فيها أحراش كثيفة منها .

والجائل فى مناطق الأهوار يجد المناظر أمامه وما تطبعه فى نفسه من أحاسيس متشابهة فى جهاتها ، فالبرك وما يعلو سطحها من نباتات عالقة ، والأهوار وما ينمو فيها من أجمات الغاب والبردى ، وما يتخلل كل ذلك من جداول كثيرة التعرج وتكتنف ضفافها أسوار عالية من الغاب الأخضر ، وهى المناظر الطبيعية السائدة ، والسكون يلف بعض جهاتها أحياناً إلا ما يسمع من همس الغاب عند ما تهز نسمة خفيفة أطرافه أو يتنهد لها سطح الماء عند سيقانه ، ولا شىء أعلى من ذلك إلا نقيق الضفادع وأصوات بعض الطيور ، أو ضربات مجذاف على سطح الماء أو ضربات ماردى يحرك به واحد من السكان مشحوفه ويوجهه خلال جدول من الجداول ، وفى الأهوار تبدو العزلة والوحشة مطبقة أكثر مما هى فى الصحراء ، ففى الصحراء يكتشف الإنسان ما حوله الى امتداد قوة بصره ، أما فى الأهوار فإن مدى هذا الاكتشاف يضيق الى بضع أمتار قليلة وأحياناً الى بضع أقدام ، ومن بين القصب الذى يكتنفه تتلصص عيون من حوله وتراقب حركاته ؛ وقد يناله من المتلصصين عليه أذى وقد لا يناله ، ولكنه يشعر دائماً بحيرة فى حسه وبثورة فى أعصابه ، والسكون الذى يلف مكانه والهمس الخفيف للغاب وهو لا يسكن ، يزيد فى وحشته وفى تنبيه حسه لكل حركة أخرى تحدث ، ويحذره مما قد يحدق به من أخطار لا يعرف من أين تأتيه .

والاقتراب من مراكز العراق فى الأهوار له بعض مظاهر ، فهنا وهناك يرى بعض الغاب وقد مال وتغير وضعه ، وحدثت فجوات فيه ومال بعض منه على بعض آخر ، كما يرى الجاموس وقد غاص بعض فيه بجسمه فى الماء إلا قليلا ، بينما أخذ البعض الآخر فى قضم الغض من سيقان القصب والبردى ، ومن بعيد تسمع أصوات تعلو على همس الغاب ، وقد يسمع صوت بجرشة (رحى) ويرى دخاناً متصاعداً من التنانير (الأفران) التى يخبز فيها الخبز اللازم لكل وجبة من وجبات الأكل ، ثم لا يلبث منظر القصب المتكاثف والذى يحجب عن النظر ما وراءه أن ينكشف فجأة عن برجة ، أو منطقة من الهور قد قطع قصبها وتتضمن بعض الجزر وعليها ترتفع بعض الارتفاع أكواخ السكان وهى مصنوعة من القصب .

بعض الظاهرات الاجتماعية — السكان وبعض نظمهم الاجتماعية — مراكز الاستقرار — التعليم والحالة الصحية .

يعيش السكان فى مناطق الأهوار عيشة قبلية ، وينتسب كل جماعة منهم الى قبيلة معينة ، وفى داخل هور الحويزة وعند حافاته تسود قبيلة البو محمد وهى كبيرة العدد ويقدر عدد رجالها بنحو ٣٠ ألف رجل ، ويشتغل بعض من أبنائها بالزراعة ويشتغل البعض الآخر بتربية الجاموس ، وبجوارها تعيش قبائل أخرى أقل منها أهمية مثل السودان والفرطوس والسواعد ، وتكتنف قبيلة بنى لام القبائل السابق ذكرها من جهة الشمال والشمال الشرقى ، وهى قبيلة قوية ويقدر عدد المقاتلين من أبنائها فى داخل حدود العراق بنحو ٢٥ ألف مقاتل ، ويحيا قسم كبير من سكانها حياة بدوية والباقى منهم حديث الاستقرار ويشتغل بالزراعة ، وفى داخل هور الحمار وعند حافاته يسكن عدد كبير من قبائل أخرى ، ومن بينهم تطلق تسمية أهل الجزائر على سكان القسم الواقع منه بين نهر دجله وبين النهاية الشرقية لبركة الحمار وهم يكونون قبائل ، ويسكن قسم كبير منهم فى الجزر المنتشرة هناك ، وأهمها قبيلة بنى أسد وهى تسكن فى ناحية الجبايش ، ومن القبائل الأخرى بنى حطيط ، وبنى مشرف ، والحسين ، والعبادة ، وعند القرنة تسكن قبائل بنى مالك ، والشلش وبنى منصور ، وعند المدايّة تسكن قبيلة الإمارة ، وبعض قبائل أخرى تطلق عليها تسمية السيامر (نسبة إلى السومريين) وان كانت كل قبيلة منها تنسب نفسها الى قبيلة من القبائل العربية المعروفة ، وفيما بين المدايّة وبين سوق الشيوخ يسكن بنى خيقان عند الحافة الشمالية لهور الحمار ، وهم يكونون مجموعة من القبائل ويشتغل معظمهم بالزراعة ، وفى القسم الغربى من هور الحمار تسكن قبائل المجره فى منطقة سوق الشيوخ وهم يكونون مجموعة أخرى من القبائل ، ويسكن على جرمة أم نخلة قبائل بنى حسن ، كما يسكن على جرمة بنى سعيد قبائل بنى سعيد وقبائل أخرى منها البو خليفة وآل حرب وعبادة وبنى مشرف والجوبير وآل اسماعيل .

والقبيلة هى أساس الوحدة الاجتماعية لأبنائها ، وهم يعتبرون تقاليدها الموروثة وعاداتها قوانين يجب أن تنفذ مهما كانت النتائج ، ويرون التراخى فى ذلك

عاراً ومذلة ، ولكل قبيلة ديرتها الخاصة بها ويعرف أبناؤها الواحد منهم الآخر ، ولهم جميعاً حق التنقل فى جهاتها على ألا يضر أحدهم بمصالح غيره ، وليس من السهل على ابن قبيلة معينة أن ينتقل من ديرة قبيلته الى ديرة قبيلة أخرى ، فإن الشك فى كل غريب عن القبيلة والحذر منه هو الأساس الأول ، والعيون المتلصصة فى الليل وفى النهار عند مداخل قرى القبيلة تراقب حركاته وتحاسبه عليها والاعتداء عليه محتمل ، ويكون مؤكداً إذا كان من قبيلة معادية ، والحذر والشك الذى يسود بين سكان الأهوار وعلى الأخص بين القبائل « المطلوبة دم » يجعل الواحد منهم لا يتنقل وراء مسكنه الا وهو مسلح ، والأسلحة النارية منتشرة هناك ، وهى الهدف الأول لكل من بلغ منهم أشده ، وأسلحتهم الأخرى هى الخنجر والجوار (عصى غليظة ويثبت عادة فى أحد طرفيها قطعة من الحديد أو من القار) والفالة ، والفالة تتكون من عصى من القصب القوى (الماردى) ويبلغ طولها بين ٢ــ٣ أمتار ومثبت فى أحد طرفيها كف من الحديد وله خمسة أصابع أطرافها مدببة ولها سن بارز كسن الشص ، ولا يستغنى ابن الهور فى تنقله عن فالته اذا استطاع أن يستغنى عن بعض أسلحته الأخرى ، فبها يصطاد غذاءه من الأسماك كما يصطاد الطيور وبعض الحيوانات الأخرى ، وبها يدافع عن نفسه ويقذفها على عدوه ، ومما لا يستغنى عنه أيضاً فى تنقله ، الزناد والمقدحة ، فبها يوقد لفائف تبغه ويوقد النار للتدفئة ويطهى طعامه ويصنع قهوته ، وهو فى تنقله خلال ديرة قبيلته عارف لطريقه فى الجداول الكثيرة ، وهو أحياناً يضع علامات يرشد بها من سيتبعه ، كما يضعها إذا كان فى ديرة أخرى ليعرف بها عند عودته الطريق الذى قدم منه .

وبعض من أبناء القبائل يشتغل بالزراعة أو بتربية الجاموس وغيره من أنواع الحيوانات المتأنسة ، وبعض آخر منهم يشتغل بصيد الأسماك وصناعة البوارى وغيرها من بعض الحرف ، وتوجد من بينهم جماعات تؤدى أعمالا أخرى ومنهم الحوشية والعبيد والملا والمؤمن ، والحوشية يسكنون حول حوش (بيت) الشيخ ، وهم طبقة ممتازة فى القبيلة يعتمد الشيخ عليهم ويتباهى بهم عند استقبال ضيوفه ، وهم عدته الأولى فى غزوه القبائل الأخرى وفى دفاعه عن قبيلته ، ولهم مخصصات يعطيها لهم من ناتج الأرض ، وللعبيد عند الشيخ مكانة خاصة ، فهم حراسه أينما سار ،

وهم كاتم سره ومطيعوه الطاعة العمياء ، وعند بعض القبائل يكون فصل العبد مثل فصل سيده (أى أن الدية التى تعطى عند قتل الشيخ يعطى مثلها عند قتل عبده) ، والملا له منزلة كبيرة أيضاً ، فهو القارىء للقبيلة والكاتب لها والمحاسب ، وهو سكرتير الشيخ ورسوله والمتحدث باسمه ، أما المؤمن فإن مكانته كبيرة عند جميع أفراد القبيلة ، لأنه رجل الدين فيها الذى يؤدى لأبنائها جميع ما يحتاجون اليه من خدمات دينية وشرعية ، وتكون منزلته أعظم اذا كان من البيت النبوى الكريم ، وهذا هو الغالب .

وسكان الأهوار مستقرون إلا أن قسما منهم لا يستقر استقراراً دائماً فى مكان واحد ، فرعاة الجاموس يتنقلون بها داخل الأهوار الى حيث يتوفر الغض من القصب فى محيط دورة قبيلتهم ، يقيمون أكواخهم على جزيرة فيها هناك ثم يلبثون عند ما يلتهى المرعى أن يشيلوا (يرحلوا) الى جهة أخرى يتوفر فيها قصب غض آخر ، ورعاة البقر والحمير والغنم يتنقلون بها من جهة الى أخرى لترعى الفصلات المختلفة من حقول الذرة والدخن ، ومن حقول الشلب ، وكذلك من حقول الدجن (القمح والشعير) ، وزراع الشلب وزراع الذرة ، يتقدمون عند تقهقر مياه الفيضان فى داخل منطقة الأهوار ويتأخرون عند تقدمها منها الى حيث تتوفر المناطق الصالحة لزراعة هذه الغلات ، كما أن بعضاً من زراع الدجن يتنقلون الى الأراضى الجديدة التى يمكن زراعتها بها ، وهى الأراضى التى لم تعد صالحة لزراعة الشلب أو الذرة ، أما المستقرون استقراراً دائماً فهم البعض الآخر من زراع الدجن الذين لا تتأثر أراضيهم بتقدم مياه الفيضان أو بتقهقرها لأنها تعتمد فى زراعتها على رفع المياه بالآلات .

وتوجد مراكز الاستقرار الدائم فى بعض المناطق التى تعلو فوق مستوى الماء فى داخل الأهوار وعند حافاتها ، وهى تقوم عادة على الأجزاء المرتفعة من ضفاف الجداول الكبيرة والأنهار ، وتمثل أسواقاً لسكان هذه الجداول ولسكان ما يتصل بها من جداول أخرى ومناطق فى داخل الأهوار ، وعن طريقها يتصل هؤلاء السكان بالعالم الخارجى وتنتقل اليهم بعض مؤثراته ، ومن أهم مناطق الاستقرار الدائم هناك القرنة ، وهى تقع عند بدء مجرى شط العرب ، وقلعة صالح

وهى تقع على الجانب الأيسر لنهر دجله ، ومسيعيدة وهى تقع على الكحلاء وعند الزاوية التى يكونها جدول الحسيجى مع هذه القناة ، وسوق الشيوخ وهى تقع على الجانب الأيمن لنهر الفرات وعند الطرف الشمالى الغربى لهور الحمار ، وفى داخل هذا الهور وعلى الجانب الأيمن للقسم الأدنى من المجرى القديم لنهر الفرات فيه توجد المداينة والجبايش ، وتتفوق أهمية بعض هذه المراكز على البعض الآخر بسبب تفوقها فى عامل أو أكثر من العوامل التى تساعد على نموها .

وتتشابه هذه المراكز العمرانية فى ظاهرة أن بيوتها مصنوعة من الكابوق (الطوب المحروق) ، وهى ظاهرة يستلزمها كون الأرض مشبعة بالرطوبة ، وذلك باستثناء بلدة الجبايش فإن معظم بيوتها مصنوعة من القصب ، ويرجع سبب ذلك الى أن الأرض القائمة عليها معرضة لطغيان المياه عليها فى وقت الفيضان ، وبسبب ضيق الأراضى التى يمكن اقامة البيوت عليها حتى عمد بعض سكانها الى إقامة جزر صناعية ورفعها فوق سطح الماء بإلقاء طبقات من الطين والغاب والبردى بعضها فوق بعض ثم كبسها ، ويقال أن تسمية الجبايش هى فى الأصل الكبايس نسبة الى هذه العملية ، والكبيسة ، أو الجزيرة الصناعية ، قد لا تستطيع مقاومة ضغط المياه عليها فى وقت الفيضان فتقتلع من جذورها ، وقد عالج السكان ذلك بتثبيتها بأوتاد ، ويزرع بعض أشجار النخيل فيها حتى تمتد الجذور وتثبتها بأرض القاع التى رفعت عليها ، وتبدو بلدة الجبايش بسبب ذلك كغابة من النخيل نامية فى وسط الأهوار .

والبيوت المصنوعة من القصب هى المظهر السائد لمراكز العراق الأخرى فى مناطق الأهوار ، وهى متشابهة فى مادة بنائها وفى مظهرها العام ، ولا يختلف البعض منها عن البعض الآخر إلا قليلا من ناحية الارتفاع أو من ناحية الاتساع فهى كلها مشيدة من حزم من الغاب ، ثبتت قوائمها فى الأرض وثنيت أطرافها فمال مايوجد منها فى جانب على ما يوجد منها فى الجانب الآخر مكونة أقواساً ، ويحرص السكان دائماً على أن يكون عدد هذه الأقواس فردياً سواء أكانت فى بيوتهم أم كانت فى مضايفهم ، والبيت بعد أن يكمل وضع أقواسه وتثبيتها يحال من القصب الملوى تغطى سقفه والأجزاء العليا من جدرانه بغطاء من البوارى

(الحصر المصنوعة من الغاب) ، أما الأجزاء السفلى منه فتغطى بنوع آخر من القصب المجدول على نحو متشابك ، وفى فصل الشتاء يلحف (يكسى) البيت بغطاء آخر من البوارى ، وحين يشتد البرد يقيم بعض رعاة الجاموس حول بيوتهم سياجا من القصب والطين التماساً لزيادة التدفئة وإضعافاً لحدة الرياح الباردة ، أما زراع الشلب فإنهم يغطون بيوتهم بغطاء سميك من قشه ، والبيت بعد أن يتم تشييده يبدو شبه نفق مصنوع من الغاب ، وأحد نهايتيه مغلقة ، أما نهايته الأخرى فتوجد فيها فتحة صغيرة تؤدى وظيفة الباب ووظيفة النافذة ، وأرض البيت تفرش بالبردى وتغطى بغطاء من البوارى أيضاً ، وفى وقت الفيضان عندما يرتفع مستوى المياه ويبدو بعضها مترشحاً فيها يرفعها السكان بوضع كميات من الطين ومن الغاب والبردى عليها ، ويتكرر ذلك كلما دعت الضرورة ، وبسبب ذلك ارتفعت أماكن البيوت فوق المستوى العام القديم لأرض القرية ، وبدا كل بيت فيها كما لو كان قائماً وحده على تل صغير ، وفى وقت الفيضان تغمر المياه المنخفضات الواقعة بينها ويكون الانتقال بين الواحد منها وبين الآخر بواسطة المشاحيف .

والصريفة نوع آخر من البيوت المصنوعة من القصب ، إلا أنها تمتاز عنها بالتأنق فى صناعتها ، كما تختلف عنها بعض الاختلاف فى هندسة بنائها ، ويشيدها الأثرياء من السكان لجلساتهم الخاصة ، أما المضيف فيبدو بين بيوت القرية كمعلاق بين أقزام ، وهو مثلها مصنوع من أقواس من القصب ومغطاة بالبوارى (الحصر) إلا أن تشييده يتطلب كثيراً من الجهد ، والاعتناء ، وذلك لأنه عنوان القرية ومنتدى رجالها ، وفيه يستقبل ضيوفها ، كما أن فيه يجلس الشيخ ورؤساء الأسر يتذاكرون فى ماضيهم وفى حاضرهم ويفصلون فى الخصومات ويوزعون العدالة بين الأفراد ، وهم فى أثناء ذلك يشربون القهوة المرة مرات عديدة ، ويستهلكون أعداداً كبيرة من لفائف التبغ ، والمضيف ملك عام للقرية ، فقد يموت الشيخ أو يغلب على أمره ويقوم آخر مقامه ، ولكنه يبقى كما هو يجلس فيه الشيخ الجديد كما كان يجلس الشيخ السابق ، وأرضية المضيف تفرش بالحصر أيضاً ، ولكن فوقها عند صدره وعند جوانبه تمد بسط وسجاجيد البعض منها صناعة عربية والبعض الآخر صناعة إيرانية ، وفوقها تطرح بعض الحشايا وتوضع بعض الوسائد وقد اتخذت أوجهها من أقمشة حريرية فى الغالب ، وفى وسط المضيف وعلى مقربة

من مدخله يوجد الموقد ، وقبل أن تخمد ناره ، وفيه توضع مصفوفة أوانى صناعة القهوة وكلها ذات مصبات معقوفة ، ويسمى أكبرها بالقمقم وهو يسع نحو أربعة جالونات من الماء ، وتليه فى السعة آنية أخرى تعرف باسم التلقامة ، وهى تسع نحو جالون واحد ، أما الأوانى الأصغر سعة من ذلك فتعرف باسم الدلات (مفردها دلة) وهى مختلفة الحجم ، وفى بعض المضايف التى زرتها كان فى الموقد قمقم واحداً وتلقامتين واثنى عشر دلة .

وتقوم بعض القرى المصنوع بيوتها من القصب ، كالقرى الأخرى المصنوع بيوتها من الكابوق (الطوب المحروق) على ضفاف المجارى المائية وعلى المناطق المرتفعة عند حافات الأهوار ، وتقوم البعض الأخرى منها على الجزر فى داخل الأهوار ، وتمتد بيوت القرى القائمة على ضفاف الجداول فى صفين طويلين على جانبي المجرى ، ويفتح أحدهما أبوابه ناحية بينما يعطيه الآخر ظهره ، ويقول بعض السكان سبباً لذلك بأن بيوتهم ينبغى أن تواجه مكة ، أما القرى القائمة فوق الجزر فإنها مزدحمة بعض الازدحام ولا نظام كبير فيها ، وفى بعض من هذه القرى نجد قلاعا قائمة لغرض الدفاع ، وهى بناء من الطين ومربع الشكل غالباً ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعه نحو ٢٠ — ٣٠ متراً ، وجدرانه سميكة وتتضمن فتحات فى أعلاها المشرف على السطح ، ولكل قلعة باب ضيق ومنخفض ويضطر الداخل منه أن ينحنى كثيراً ، ويصل بين أرض القلعة وبين سطحها سلم غير ثابت مصنوع من الغاب الصلب ويمكن رفعه إلى السطح عند الضرورة .

وتموج مناطق الأهوار فى بعض أوقات السنة بأفواج من الذباب ومن البعوض ، ومما لا حصر له من أنواع الحشرات الأخرى التى تعيش فى الطين وعلى سطح المياه الراكدة ، وعلى ميقان النباتات وأوراقها ، كما توجد فيها بعض أمراض متوطنة ، وأكثرها انتشاراً الملاريا والبلهارسيا والانكاوستوما ، وفى منطقة الجويزة بسبب وقوعها بعيدة عن المسالك الطبيعية للاتصالات واضعف الرقابة عليها من جانب العراق ومن جانب ايران ، تنتشر بعض أمراض أخرى ومن بينها الجزام ، وقد اهتمت الحكومة العراقية بهذا المرض وأقامت لمكافحته مصحاً فى العمارة ، كما اهتمت أيضاً بالأمراض الأخرى وأنشأت لها مستوصفات

فى بعض القرى ، وقد أبدت كذلك اهتماماً بالتعليم وأنشأت هناك بعض المدارس وزودتها بمشاحيف لنقل التلاميذ ، ومعظم مستوصفات الحكومة ومدارسها مشيدة من الغاب ، ويبدو اهتمام الحكومة بالتعليم وبالصحة فى هور الحمار أكثر وضوحاً منه فى هور الحويزة .

ومع أن القذارة البادية فى القرى والأمراض المنتشرة تمهد طريق النصر للموت ، إلا أن الحياة هناك لا تزال هى المنتصرة ، ويبدو السكان فى مستوى جسمانى لا بأس به ، ولا شك أن هناك تتمثل نظرية البقاء الأصلح بصورة واضحة فنسبة الوفيات فى الأطفال عالية جداً ، ولكن الطفل منهم إذا عاش وبلغ أشده ازداد على مرور الزمن قوة وصلابة ، ويقنع الرجال تحت حرارة الصيف المحرقة وتحت برودة الشتاء القاسية ببشت واحد (عباءة خفيفة من الصوف وغالباً ذات لون أحمر) قاتم ومحتزمين بحزام حول وسطهم ، وأحياناً يرون بلا بشوت ، كما ترى الأطفال عرايا ، فقد رأيت ، وكان الوقت فى أوائل شهر فبراير وهو من أشد شهور الشتاء برودة فى العراق ، بعض أطفال قرية الشدة فى هور الحويزة مصطخين (عرايا) تماماً كما رأيت بعض الرجال بأجسامهم العارية ذات اللون البرنزى ، يبدون مكتنزى العضلات ، وكانت أسنانهم بيضاء لامعة وبعضهم قد جدل شعره الكث فى ضفيرتين ، وهم سباحون مهرة وقادرون على مكابدة أشد المتاعب إلا أنهم مع ذلك يبدون على درجة كبيرة من الكسل اذا لم يوجد أمامهم عمل على جانب كبير من الضرورة يستلزم نشاطهم .

والمرأة هناك تتمتع ببنية قوية أيضاً ، وتبدو الفتاة بعينيها الواسعتين المكحلتين وبخصلة من الشعر الفاحم على جبينها ذات ملاحة وجمال ، وهى على العكس من الرجل تلبس ملابس طويلة فضفاضة يغطى جسمها من الرقبة وتتهدل عليه حتى تجرجر ذيولها على الأرض من الخلف ، أما من الأمام فإن الذيل يرتفع قليلا ليكشف عن حجل (خلخال) من الفضة البراقة ملتف فوق قدميها ، أما العجائز منهن فيجلسن القرفصاء على أبواب الأكواخ يغزلن بعض الصوف أو يحرشن (يطحن) بعض الحبوب ، وهن لابسات بشوتاً سوداء أو قاتمة ، وقد عصبن رؤوسهن بعصابة كبيرة من القماش الأسود يعرف باسم (الشيلة) ، وعلى حافة

البرك والأهوار ترى بعض النساء الصغيرات يغسلن بعض الملابس وبعض أوعية الطعام والحليب والروبة (اللبن الرايب) ، أو يملأن مشخة (قدر كبير من النحاس — دست) بالماء للأغراض المنزلية ، وبجوارهن يرى صف من المشاحيف مختلفة الأحجام ، كما يرى بعض الأطفال عراة يلعبن فى الماء ، وبجوار كل كوخ وعلى مسافة قصيرة منه ، يوجد تنور (فرن) تجلس أمامه ربته تخبز الخبز اللازم لأسرتها فى كل وجبة من وجبات الطعام ، وتوقده بالجاف من نباتات المستنقعات وبأقراص من روث الماشية ترى موضوعة صفوفاً على جدران الأكواخ لتجففها حرارة الشمس .

بعض الظاهرات الاقتصادية

تربية الجاموس وغيرها من بعض الحيوان — صيد الأسماك والطيور وصناعة البوارى — الزراعة — التسويق — والتوجيه الجغرافى لثروات السكان .

تقدم الأهوار لسكانها بعض الثروات ، ففيها القصب والبردى ونباتات أخرى ، ومنها ما يصنعون منه أكواخهم ويلسجون فراشهم ويوقدون نيرانهم ، ومنها ما تنسج منه البوارى والسلال وتفتل الحبال ، ومنها ما يتغذى به الجاموس ، ومن براعم البردى يصنع الخريط ويؤكل كمادة حلوة وتعالج به بعض الأمراض ، وفيه السمك وافراً والطيور البرية كثيرة ، وهما يكونان مع اللبن الخاثر من الجاموس جانبا مهما فى غذائهم ، ومن ريش الطيور أيضاً تحشى بعض الوسائد . وتوجد فيه عدا ذلك بعض حيوانات أخرى كالسلاحف والخنازير البرية وكذلك الكوسج (كلب البر) ، وجلده ثمين القيمة ، وما يفيض عن حاجاتهم من هذه الثروات يبيعونه ويشترون بثمنه مطالب أخرى ، فهم يجمعون بعض الغاب والبردى ويبيعونه حطباً للوقود ، والبردى يستخدم على الأخص بكثرة فى قاع الكابوق وهى التى يرى عدد كبير منها على طريق ضفة نهر دجله بين القرنة وبين العمارة . كما أن من بعض القصب تصنع البوارى (الحصر المصنوعة من الغاب). وهى تباع بكميات كبيرة وتستعمل لأغراض شتى فى أنحاء العراق . وهم يبيعون كذلك ما يفيض عن حاجياتهم من مستخرجات الألبان ومن الأسماك ومن جلود الحيوان وريش الطيور ويشترون بثمنها حاجياتهم ، وهى بسيطة ، أو يستبدلونها بها.

جاموس المدان

طريقة وصناعة البوادى بالسكبايس

وتربية الجاموس حرفة أساسية لجماعة من سكان الأهوار تطلق عليهم تسمية المعدان ؛ ولكل منهم حيواناته الخاصة منها ، والمعدان هم السكان الحقيقيون للأهوار ويعيشون على جزر فى داخلها ، بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجى . وهم مستقرون ويعيشون فى أكواخ من القصب ، ولكنهم يتنقلون من جزيرة الى أخرى فى داخل الأهوار وضمن حدود دیرتهم للبحث عن مناطق العنجر (الغض من الغاب) لرعى حيواناتهم ، ويكثر تنقلهم فى فصل الشتاء على الأخص لأنه الوقت الذى يجف الغاب فيه . وهم فى تنقلهم يحرقون الغاب الجاف فى المناطق التى يغادرونها ليساعدوا النبت الجديد على سرعة النمو . والغاب المتفحم من الحريق يجمعونه ويبيعونه وقوداً وعلى الأخص للصبة المتخصصون فى صناعة الذهب والفضة وطلائهما بالميناء ، ولبن الجاموس عند حلبه يسمونه الحليب أما اللبن الخاثر فيسمونه اللبن . وبعض الحليب يصنعون منه القيمر (كالقشدة التى تباع فى محلات الألبان) وبعض منه تصنع منه الروبة (اللبن الرايب) أما الباقى وهو القسم الأكبر فيصنع منه الدهن (الزبدة) . والقيمر والروبة واللبن المتخلف من صناعة الزبدة يستهلك محلياً ، ولكن الزبدة تجمع يومياً ويضاف البعض منها الى البعض الآخر حتى يحين وقت بيعها . ولا يتطلب رعى الجاموس منهم مشقة كبيرة لأنهم يطلقونه فى الغاب المجاور ليرعى ويقيمون بعض الصبية لحراسته ، والجاموس يعرف أصحابه ويستجيب لندائهم عليه كما يعرف أن يدافع عن نفسه ضد الغرباء ، وبسبب ذلك توفر لرعاة الجاموس وقت ، وقد استغلوه فى بعض حرف أخرى كصناعة البوارى وصيد الأسماك والطيور وبعض الحيوانات الأخرى .

وصناعة البوارى هى الحرفة الرئيسية الثانية للمعدان ، ويقوم النساء بها غالباً ، وهى تصنع من الغاب ، فبعد قطعه من أماكنه ونقله إلى القرى ينظف من قشوره ، ويشق بسكين يسمى (المشقة) ويترك بعض الوقت ليجف ، وبعد جفافه يدق بمدق من الخشب حتى تنعم أليافه ثم يوضع فى الماء مدة حتى تلين هذه الألياف وتصبح صالحة لصناعة البوارى بطريقة مشابهة للطريقة التى تصنع بها الحصر فى الريف المصرى .

نقش الثور على واجهة

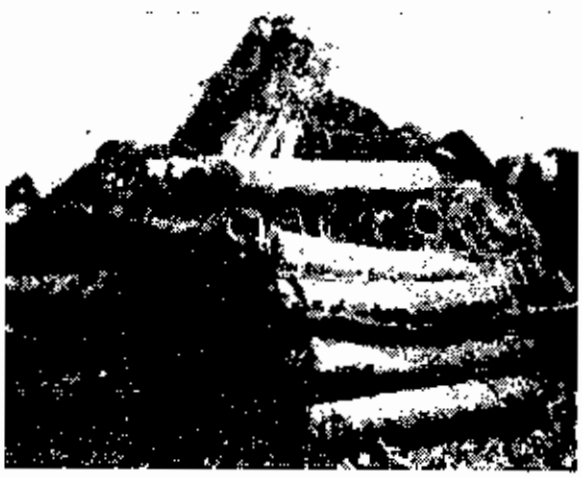

انبراري (الحصر)
أعدها المعدان الليح

والأسماك تشترك فى الغذاء اليومى لأسر المعدان، ويقوم بصيدها يومياً واحد أو أكثر من أبناء كل أسرة الا أن هناك جماعات من بينهم تطلق عليهم تسمية البرابرة فى بعض الجهات يتخذون صيد الاسماك حرفة أساسية لهم . والأهوار لوفرة مراعيها وبطء حركة المياه فيها وتضمنها مخابىء كثيرة بين جذور الغاب والبردى بيئة صالحة لنمو الأسماك وتكاثرها . وهى تكون كثيرة على الأخص فى فصل الشتاء وفى فصل الخريف . ويتفق هذا مع مصلحة الصيادين لأنه لا تتوفر لديهم وسائل حفظ الأسماك بعض الوقت فى الفصول الحارة من السنة . وتقل فى فصل الربيع الأسماك الكبيرة لأن معظم البالغ منها يصعد فى الانهار إلى حيث يعد الاماكن الملائمة لوضع بيضه وتلقيحه . أما فى فصل الصيف فتقل الأسماك بصفة عامة لأنه فصل الانخفاض فى مستوى المياه ، فترتفع حرارتها كثيراً ويقل وجود الاكسوجين فيها مما يضطر معظم السمك فى الأهوار إلى الهجرة دون فارق بين البالغ منها وبين غير البالغ ، صاعدة فى الأنهار مرة أخرى نحو الشمال ، ولمقابلة هذا النقص الكبير فى الأسماك فى هذه الأوقات من السنة ، لجأ السكان إلى تجفيف بعض منها فى وقت وفرتها ، وتمليحه وحفظه ، والبز هو أكبر أسماك الأهوار حجما ، أما أغلاها ثمناً فهو الشبوط والبنى ثم الجطان ، وهناك أسماك أخرى كثيرة ولكنها لا تؤكل ، ويعتقد الشيعة ومنهم معظم سكان الأهوار بنجاستها ، وهى الأسماك التى لا حراشف لها ومن أنواعها الجرى وأبو الزمير .

ولصيد الأسماك عدة طرق ، وصيدها بالشباك يشبه بدرجة كبيرة ما يمارسه الصيادون المصريون ، وصيدها بالزهر ، وهو نوع من المواد السامة يخلطه الصيادون ببعض الطحين (الدقيق) أو لب البردى أو بعض الحشرات ، يشبه كذلك ما هو معروف فى بعض جهات مصر ، ولكن صيدها بالفالة طريقة خاصة بهم ولهم

(١) عن الأسماك فى مياه العراق يوجد قيد ويجرى بلايوف عدة مقالات فى مجلة الزراعة العراقية ، فى الاعداد الآتية :

١٩٤٧ : الجزء الأول . المجلد الثانى ص ٧٦ — ٩١ ، الجزء الثانى من المجلد الثانى ص ٢٤٥ — ٢٥٢ ، الجزء الثالث من المجلد الثانى ص ٣٧٦ ٣٨٤

١٩٤٨ : الجزء الأول من المجلد الثالث ص ٧٣ — ٧٩ ، الجزء الثانى من المجلد الثالث ص ٢٠٧ — ٢١٥

١٩٤٩ : الجزء الأول من المجلد الرابع ص ٦٢ ٦٦

فيها مهارة ، والفالة قد سبق وصفها ، والصياد يتبع فى الصيد بها ثلاث طرق ، وتعرف الأولى منها بالصيد (على العمية) بمعنى أن الصياد يصطاد بها على غير هدى فى المناطق التى يظن أن السمك مختبىء فيها ، وتعرف الثانية بالصيد على (الرؤية) بمعنى أن الصياد يقف فى المياه الصافية ويضرب بها السمكة التى يراها ، وهى تكون على الأخص فى الأوقات التى تحدث فيها هجرة الأسماك صاعدة فى الأنهار أو نازلة فيها ، وتعرف الأخيرة (بالضوئية) وهى تحدث فى الليل ، ويقف الصياد ممسكا بشعلة وموجهاً ضوءها نحو الماء ، والسمك كالفراش يجتذبه الضوء . وفى أوائل الصيف عند ما ينخفض مستوى الماء فى الأهوار ويتخلف بعض منها فى المنخفضات ، يجد الأطفال فيها كميات كبيرة من الأسماك الصغيرة ويصطادونها ببشوت أهليهم أو ببعض الخرق ، ويبيعونها لبعض الفلاحين عند حافة الأهوار .

وتقابل محترفى صيد الأسماك مشكلة نقلها إلى الأسواق الكبيرة خارج حدود الأهوار ، وكذلك مشكلة حفظها حتى يأتى المتعهدون إليهم لنقلها إلى هذه الأسواق ، على أنها ليست مشكلة عويصة من بعض النواحى ، لأن السمك لا يتوفر لهم إلا فى فصل البرودة ، وهم أيضاً يمارسون لحفظه بعض الوقت عملية هدفهم إليها الخبرة ، وتعرف باسم عملية التجويف ، فهم يشقون السمكة من ظهرها ويخرجون أمعاءها مع الاحتراس من الأضرار بجلدة البطن ، ثم يدلكون ظهرها ببعض الملح ويلقونها فى قاع بلم (زورق شراعى صغير) ، وتكرر هذه العملية فى كل الأسماك المصادة ، ويمكن حفظ السمك بهذه الطريقة مدة تتراوح بين ٣ — ٥ أيام ، وعندما تتوفر حمولة البلم يبحر إلى العمارة أو القرية أو سوق الشيوخ أو قلعة صالح أو غيرها من الأسواق المحلية الأسماك ، حيث تأتى سيارات معدة لنقله إلى بغداد والبصرة وغيرهما من المراكز الكبيرة للعمران فى العراق .

وللطيور البرية مورد آخر للرزق لدى سكان الأهوار ، وبعض منها متوطن هناك ، ولكن الكثير منها يهاجر إليهم فى فصل الشتاء ، ومن أنواعها الخضيرى والجوشر ودجاج الماء والزواجى والحزاف والوردة ، وهى تتغذى فى النهار على الأسماك وترى منها أعداد كبيرة على سطح الماء ، أما فى الليل فتهاجر إلى حقول الشلب والذرة والدخن (القمح والشعير) وتتغذى من بذورها

ومن نباتاتها الصغيرة ، وهى تصاد بالبنادق وبالشباك ، وصيدها بالشباك يشبه ما هو معروف عندنا فى القسم الشمالى من الدلتا باسم اللبدة ، وبعض الصيادين يلق بعض القرع الأصفر على سطح الماء ويلبس على رأسه واحدة منها ، حتى إذا أمنت إليه الطيور وحطت من حوله أمسك بالواحدة منها من رجلها وسحبها تحت سطح الماء وذبحها بخنجره ، وبعض الطيور المصادة تؤكل محلياً وبعضها الآخر يجمع ويباع فى الأسواق ، وهناك أنواع من الطيور لا تؤكل ولكن يؤخذ ريشها كما يؤخذ ريش الطيور الأخرى وتحشى الوسائد ببعضه ويباع البعض الآخر .
ومن الحيوانات الأخرى للصيد فى منطقة الأهوار ، الكوسج (كلب الماء) وهو يصاد بالقالة ويباع جلده وهو ثمين ، والخنازير البرية كثيرة وهى تصاد بالأسلحة النارية وبالقالة أيضا كما تصاد بوضع غابة محوفة فى دربها حتى يمتلىء جوفها بالماء وتعجز حركتها ، ويؤخذ جلدها ويباع كما يباع لحمها للبعض من المسيحيين .

وعند حافة الأهوار توجد جماعة أخرى ، وهم يشبهون المعدان فى حياتهم ويشبهون الزراع فى بعض آخر ، فهم يربون الجاموس وبجواره يربون البقر والحمير وبعض الغنم والماعز ، كما يشاركون المعدان فى حرفهم الأخرى ، وبجانبها يزرعون الشلب والذرة البيضاء والدخن ، وصلاتهم بالمعدان وثيقة فهم الذين يمولونهم بحاجياتهم من غلات هذه المزروعات ، ويوجد وراءهم بعيداً بعض البعد من حافة الأهوار زراع الدجن (القمح والشعير) ، وزراع كل غلة من هذه الغلات لا ينافسون غيرهم فى زراعة الغلات الأخرى ، ويقول الشيخ عباس محمد العربى من شيوخ البو محمد ، إن الواحد منهم لو أرغم على زراعة غلة أخرى ينهزم (يهرب) ، لأنه يعتبر زراعته لغلة معينة وراثة وتقليداً .

وتعتبر تربية البقر والحمير وبعض الحيوانات الأخرى عند سكان حافات الأهوار حرفة مساعدة للزراعة ، وتتغذى هذه الحيوانات على الحصيل (فضلات المزروعات) وعلى الحشائش والأعشاب النامية عند حافات الأهوار والمجارى المائية ، وفى الأراضى الأخرى غير المزروعة ، وتربية البقر والحمير ضرورية للسكان ، لأن هذه الأنواع من الحيوانات ، وليس الجاموس ، هى التى تستخدم فى درس غلاتهم الزراعية بعد حصادها ، وهى كذلك التى تستخدم فى كراب

(حرث) الأرض عند إعدادها للزراعة ، وتربية البقر مربحة لأن حليب البقر ومستخرجاته هو المفضل عند كافة العراقيين على حليب الجاموس ومستخرجاته ، على أن الملاحظ أن معظم البقر هناك ملك للشيوخ ، وتستخدم ألبانه على الأخص لسد مطالبهم المنزلية ومطالب ضيافتهم ، ولمعظم البقر سنام فى الجزء الخلفى من رقبته ويشبه البقر المعروف فى الهند ، أما الحمير فمنها ما هو صغير الحجم ومنها ما هو كبير ، ويسمى الكبير منها بالحساوى نسبة إلى مقاطعة الأحساء السعودية على ساحل الخليج الفارسى ، وفى بعض المناطق عند حافة الأهوار ، ترى أحياناً وعلى الأخص فى فصل الصيف ، قطعان أخرى من الغنم والمعز يرعاها رعاة آخرون من البدو مهاجرون من الصحراء ، ويتميزون بخيامهم المصنوعة من الصوف ، ومن الظاهرات التى يمكن لمسها ، أنه بينما يكثر وجود الكلاب بين الرعاة عند حافة الأهوار ، يندر وجودها بين رعاة الجاموس فى داخلها ، وهذا يرجع إلى أن ظروف الحياة فى داخل الأهوار غير ملائمة لها .

والشلب (الأرز) يزرع غالباً فى المناطق المغمورة بالمياه إلى عمق معين [1] ، وبعض منه يزرع فى أراضى أخرى ، منها يروى سيحاً (بالراحة) ومنها ما يروى بالآلات الرافعة ، ولذلك تحدث زراعة خلال فترة طويلة ، وبعض منها يكون مبكراً وبعض آخر يكون متأخراً ، وتعرف الزراعة التى تحدث مبكراً باسم الزراعة الهرفية ، كما تعرف التى تحدث متأخرة باسم الأفلية ، والزراعة الهرفية تمارس ابتداء من مارت (مارس) وتستمر إلى أواخر مايس (مايو) ، أما الزراعة الأفلية فإنها تمارس من أول حزيران (يونيو) وتستمر إلى أواخر تموز (يوليو) ، وأهم مناطق زراعة الشلب توجد عند زنائب (نهايات) الجداول التى تحمل إلى الأهوار مياه الفيضان المحملة بالدهلة (الغرين) ، وكذلك فى بعض مناطق أخرى ملائمة يقيم الزراع حولها سداداً بوضع خاص ويرمون من ورائها إلى أضفاف حركة المياه فيها حتى يترسب عليها أكبر كمية من الرواسب الفيضية ، وهى المناطق التى تزرع شلباً تكون عادة منخفضة بالقدر الذى يمكن معه ريها سيحاً

(١) عن زراعة الشلب فى منطقة الأهوار راجع للسيد يحيى فتاح مقاله بعنوان « زراعة الشلب فى لواء العمارة » ص ٤٥٥ — ٦٦٤ فى مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الرابع — المجلد الثانى لسنة ١٩٤٧ ؛ وراجع مقالة أخرى للسيد ابراهيم بعنوان « زراعة الأرز فى لواء المنتفك » ص ٢٩٥ — ٣٠٠ فى مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الثالث — المجلد الثالث لسنة ١٩٤٨

بعد انحسار مياه الفيضان عنها ، كما أنها تكون مرتفعة بالقدر الذى لا يبقيها مغمورة بالمياه مدة أكثر مما ينبغى ، وحقول الشلب توجد أيضاً فى كل المناطق التى يمكن ريها سيما ويمكن صرفها ، كما توجد فى بعض مناطق أخرى وتروى بالآلات ، وهو يزرع فى بعض حقوله نثاراً وفى بعضها الآخر شتالا ، وعند نضجه يحصد بالمناجل ، ويبدأ وقف الحصد من أول تموز (يوليو) ويستمر إلى أواخر تشرين الثانى (نوفمبر) ، ثم ينقل إلى بيادر (أجران) ويدوس البقر والحمير على سيقانه لاستخلاص الحبوب ، وتحدث هذه العملية فى الصباح وفى المساء ، ثم يجمع حبوبه وتوضع فى قفف ضخمة من القصب المجدول مكسوة بطبقة من الطين وتترك على ضفاف الجداول حتى يأتى التجار لشراء ما هو معروض للبيع منها ، وأكثر أنواع الشلب المزروع انتشاراً يسمى نعيمة أما أجودها فيسمى عنبر ، ومن المعروف أن حبوب الشلب بعد أن تنزع عنها قشورها وتصبح صالحة لصنع الطعام منها ، تسمى تمن .

والأراضى التى تغمرها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها بعد انتهاء وقته يسميها الزراع أرض التطياب ، وهى تتضمن أهم حقول الشلب ، وتشارك الذرة البيضاء فى بعض منها ، إلا أنها تختلف عنه فى أنها لا تزرع إلا فى الأراضى التى انحسرت عنها المياه إلا قليلا ، حيث تترك لتنمو على الرطوبة الباطنية دون حاجة إلى الرى ، ولهذا تتركز زراعتها فى الأراضى التى لا يمكن ريها سيما مثل الجزرات التى توجد عند ضفاف المجارى المائية وفى بعض المناطق على هذه الضفاف ، وهى مثل الأرز لها زراعة عرفية تبدأ من مايس (مايو) وفيه تبذر الحبوب فى الدايات (المشاتل) ومنها تنقل إلى الحقول خلال شهر حزيران (يونيه) ولها زراعية أقلية تمارس بعد ذلك ، ويبدأ وقف حصاد الذرة من آب (أغسطس) ويستمر إلى تشرين الثانى (نوفمبر) ، وهى لا تحتاج إلى جهود كبيرة كما يتطلب الشلب ، ولذلك يجد زراعها وقتاً يستثمرونه فى نواحى أخرى ، وتعتبر غلة ثانوية بالنسبة له ، كما أنها تزرع عند حافة الأهوار فى المناطق التى لا تصلح لزراعته ، وتجد سوقها الرائج عند رعاة الجاموس ، كما أن عليها وعلى فضلاتها يربى زراع الشلب قطعاناً كبيرة من البقر ومن الحمير ومن الغنم ، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية البقر والحمير لدى زراع الشلب بعد حصاده .

والأراضي الحديثة التي تعلو فوق مستوى الفيضان وتضاف سنوياً إلى الأراضي العراقية تسمى أرض الطلاع ، وهي أيضاً تزرع شلباً مادام في الإمكان ريها سيما من الجداول ، وهي أرض التطياب يقبل عليها الزراع لخصوبتها الكبيرة ولسهولة ريها وصرفها ، وكذلك لأن الوقت لا يتوفر للحكومة لمسحها وفرض الضرائب عليها ، وأرض الطلاع إذا مضى وقت عليها وابتعدت كثيراً عن المدى الذي تصل إليه مياه الفيضان عند حافة الهور تسمى بالأرض الرباث ، ويجد زراع الشلب أن خصوبتها ليست بالدرجة اللازمة ، وأن زراعتها تحتاج إلى جهود كبيرة ، وقد يهملونها فتلف وتنمو فيها الحشائش الضارة والأعشاب ، ولا يزرعون منها إلا ما يمكن ريه سيما أو تتوفر الآلات الرافعة لريه ، وهم لكي يروونها سيما يقيمون (سكورا) وتسمى أيضاً (حولا) من القصب والبردي والطين في مجرى الجداول لترتفع المياه أمامها وتغذي الحزات (الجداول الحقلية) ، ولا ينبغي أن تقام السكور في مجاري الجداول الملاحية ، كما ينبغي ألا تسبب ضرراً لمصالح أصحاب الحقول التي تقع على امتداداتها السفلى للجداول ، وهناك بعض حقول يرويها الزراع سيما اعتماداً على قوة الرياح ، وهي توجد عادة في جزيرة تعلو قليلا عن مستوى المياه في منخفضات تكتنفها ، والزراع يشقون قنوات فيها تتصل بهذه المنخفضات فإذا هبت الرياح من جهة واحدة منها دفعت سطح الماء فيها ورفعته إلى القنوات فتسقى الحقول ثم تعود إليها ثانية بعد أن يتوقف هبوب الرياح من جهتها ، تروى الحقول بهذه الطريقة من المنخفض الآخر إذا تغير هبوب الرياح وهبت من جهته ، وتسمى أراضي الرباث التي تزرع شلباً على الري بالآلات الرافعة تسمى أرض البربع أو البرعوع ، ومع أنها تعتبر من أقل الأراضي الصالحة لزراعة الشلب خصوبة ومن أكثرها تكاليفاً ، إلا أن البعض من الزراع يقبل عليها بسبب ضمان توفر المياه لريها مهما اختلفت مناسيب المياه في الجداول ، وهي لا تلبث عندما يزداد ضعف خصوبتها أن تنقل إلى الأراضي التي تزرع بالدجن (القمح والشعير) .

ومن المشاهد أن الزراعة في الأهوار وعند حافاتها تكتنفها صعوبات جمة ، وذلك لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمياه الفيضان وهي لا تأتي منتظمة كمياه فيضان النيل مثلا ، وإنما تأتي في نوبات بين فترة وبين أخرى ، والشلب مثلا يزرع

فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بعمق يتراوح بين ٢٥ — ٥٠ سم ، وقد يزرع عند هذا العمق ثم لا يلبث مستوى المياه أن ينخفض عنه كثيراً أو يزيد عنه فيتسبب عن ذلك ضرر للزرع ، والذرة تزرع فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بعمق نحو ٣ سنتيمترات ، ولكنها قد تزرع ثم تأتى نوبة من نوبات الفيضان العالى فتغمرها مدة طويلة فوق هذا القدر المناسب ، والجداول والقنوات الحقلية التى يحفرها الزراع لرى حقولهم سيما ينبغى أن يجدد حفرها سنوياً ، لأن مياه الفيضان تغمرها وتطمرها برواسبها ، وكذلك ينبغى أن تقام سنوياً السكور التى ترفع المياه أمامها لتغذية هذه الجداول والقنوات ، وهم مضطرون أيضاً أن يقيموا سنوياً سداداً حول حقول مزروعاتهم ويقووا القائم منها خوفاً من أن تأتى نوبة فيضان عالية فتهدمها وتطغى على الحقول ، وعدا هذه الصعوبات عليهم أن يقاوموا خطر الطيور البرية والسلاحف والأسماك .

وزراعة الدجن (القمح والشعير) التى تقوم وراء نطاق الشلب والذرة نحو داخل سهل العراق ، وإن شابهت زراعتها فى أراضى هذا الداخل ، إلا أنها أكثر ضماناً ، فهى كمزروعات شتوية تتوفر المياه لها أكثر مما تتوفر لغيرها ، فالأمطار هناك تسقط بغزارة نسبية [1] لوجود السطوح المائية الواسعة فى الأهوار ولقربها من الخليج العارسى ، كما أن المياه الجارية فى الجداول يسهل التحكم فيها بإقامة السكور فى مجاريها ، ومن الملاحظ هناك فى منطقة حقول الدجن ، أن حقول الشعير تتقدم نحو حافات الأهوار عن حقول القمح ، وذلك لأن هذه الغلة الأخيرة تحتاج أكثر من الشعير إلى الجفاف .

وفى جميع مناطق الزراعة فى داخل الأهوار وعند حافاتها لا تبدو دورة زراعية إلا فى أرض البربع ، وهى التى تروى بالآلات ، فالأراضى التى تروى سيما تزرع كل سنة غلة واحدة هى الشلب أو الذرة اعتماداً على مياه الفيضان ، أما الأراضى التى يتوفر ريها بالآلات فإنها فى الشتاء تزرع بالغلات الشتوية زراعة مبكرة وعلى الأخص بالشعير ، حتى يمكن حصد المحصول فى الوقت الذى تكون

(١) يبلغ المعدل السنوى لسقوط الأمطار فى العمارة ٣١٢ م م وفى بغداد ١٣٤ م م وفى البصرة (المعقل) ١٩٨ م م .

راجع : Aretcorological arvices; Climatological Means for Iraq. Baghdad 1950, P. 43

فيه الجداول مملوءة بالمياه الحمراء ، وبعد الحصد تعمر الأرض بهذه المياه وتبذر فيها حبوب الشلب وبعد حصاده تترك الأرض بوراً إلى مارس من السنة التالية فتزرع بالذرة البيضاء ، وبعد حصادها يزرع الشلب فيها زراعة أقلية ، وفى السنة التالية يزرع أحد المحاصيل الشتوية غالباً ، وتترك الأرض بوراً عادة سنة بين كل سنتين من الزراعة أو ثلاث .

ومما سبق يلاحظ من يتقدم نحو داخل الأهوار ما يأتى :

بالنسبة للحيوانات : وجود نطاق تكثر فيه قطعان من الغنم والمعز ويتلوه نطاق آخر تختلط فيه بعض هذه القطعان ببعض آخر من قطعان البقر والجاموس ، وعند حافة الأهوار تغلب قطعان البقر والجاموس ويرى بينها بعض من قطعان الجاموس ، أما فى داخل الأهوار فتسود قطعان الجاموس .

وبالنسبة للمزروعات : وجود نطاق تسود فيه زراعة القمح ويتلوه نطاق ثانى تسود فيه زراعة الشعير ، فنطاق ثالث يتضمن بعض حقول للذرة بجانب حقول الشلب وينتهى بنطاق تسود فيه زراعة الشلب .

والمعدان وهم رعاة الجاموس لايسعون فى أوقات فراغهم للعمل خارج حدود أهوارهم ، وربما يرجع بعض السبب فى ذلك إلى أنهم يحدون من غيرهم ازدراءا ، فمن المشاهد أن من أقصى السباب التى توجه لشخص من غير المعدان أن يقال له بأنه معيدى ، أما رعاة الحيوانات الأخرى والزراع فإنهم يقومون فى أوقات فراغهم ببعض الأعمال المثمرة ، فالرعاة يتنقلون فى أوقات نضج المزروعات من حقل إلى آخر يشاركون فى حصادها وتعمل حيواناتهم فى درسها ، ويأخذون فى نظير ذلك نصيباً من غلتها ، فضلا عن تغذية حيواناتهم من فضلاتها ، وكذلك يلتقل بعض زراع احدى هذه الغلات إلى حقول غلة أخرى للعمل فى حصادها فى مقابل نصيب منها ، وتبدو أهمية ذلك كبيرة بالنسبة لهم لما هو معروف من أن كل زارع متخصص فى زراعة غلة معينة ويعتبرها وراثة عن آبائه وتقليداً ، وفى فصل الصيف يهاجر بعض من الذكور وبعض الإناث إلى بساتين النخيل على ضفاف شط العرب للاشتغال فى الأعمال المتعلقة بجمع التمور وتنقيتها وإعدادها للبيع وتستخدم مكابس التمور هناك أعداداً كبيرة منهم ،

وفى فصل الشتاء تنشط النساء فى جمع الأعشاب والأشواك لبيعها للوقود ، وهن أحيانا يحرقنها فى أماكنها ويبعنها كنوع من الفحم النباتى .

وسكان داخل الأهوار وحافاتها يستهلكون محلياً بعضاً من ثرواتهم ، ويتاجرون فى الباقى ، وبعض من هذا الباقى ينقله أصحابه فى مشاحيفهم الصغيرة خلال الجداول الكبيرة وعند شواطىء الجداول الكبيرة إلى الأسواق القريبة منهم ، وبعض آخر منه يبيعونه لتجار متجولين يأتون اليهم فى قوارب صغيرة ولديهم فيها بعض ما يحتاجون اليه من لبن والسكر (السكر) والشاى وأوراق التبغ ، ومن بعض الأطعمة كالبصل والمقات والتمر والملح ، وكذلك بعض مما يحتاج النساء اليه لزينتهم ولغيرها ، ويستبدلون بها بعضا من الزبدة أو الأرز أو جلود بعض الحيوانات وريش الطيور ، وما يتبقى لديهم بعد ذلك وهو الجانب الأكبر من ثرواتهم فيأتى له تجار آخرون لشرائه بالجملة وينقلونه إلى الأسواق الكبيرة .

والتوجيه الجغرافى لثروات مناطق الأهوار نحو هذه الأسواق يرتبط بطرق المواصلات الموصلة اليها ، وتصلح البرك والجداول المتصلة بها فى وقت الفيضان لسير السفن التى لا يتجاوز غاطسها نحو ٥ أقدام ، ولهذا فإن ثروات هذه المناطق تنقل أثناء هذا الوقت إلى أقرب هذه الأسواق الكبيرة اليها ، أما وقت الانخفاض حيث لا تصلح معظم هذه السطوح المائية والجداول إلا لسير المشاحيف الصغيرة فإن اتجاه هذه الثروات يتحدد فى مجارى الأنهار الكبيرة وعلى ضفافها ، والعمارة هى السوق لثروات هور الحويزة ، وهى تنقل إليها جدولى الكحلاء والمشرح ، وبعض من ثروات هذا الهور تنقل إلى قلعة صالح عن طريق جدول المجرية ، ومنها ينقل إلى العمارة عن طريق مجرى نهر دجله أو عن طريق ضفافه ، والقسم الأكبر مما ينقل إلى العمارة من ثروات هذا الهور يتجه نحو الشمال إلى بغداد ، أما ثروات هور الحمار فلها اتجاهات أخرى ، فتنقل معظم ثروات القسم الشرقى منه فى القسم الأدنى من المجرى القديم للفرات إلى القرنة ومنها إلى البصرة أو إلى بغداد ، وتنقل معظم ثروات القسم الغربى منه إلى سوق الشيوخ أو إلى الناصرية ، ومنهما يصدر إلى البصرة ، وقسم آخر إلى بغداد ، أما ثروات القسم الشمالى من هذا الهور فإنها تنقل فى شط الحمار أو فى شط البدعة إلى الشطرة وغيرها من مدن الفرات ، وأما ثروات القسم الجنوبى فإنها تنقل إلى البصرة عن طريق شط العرب وجانبه الأيمن .

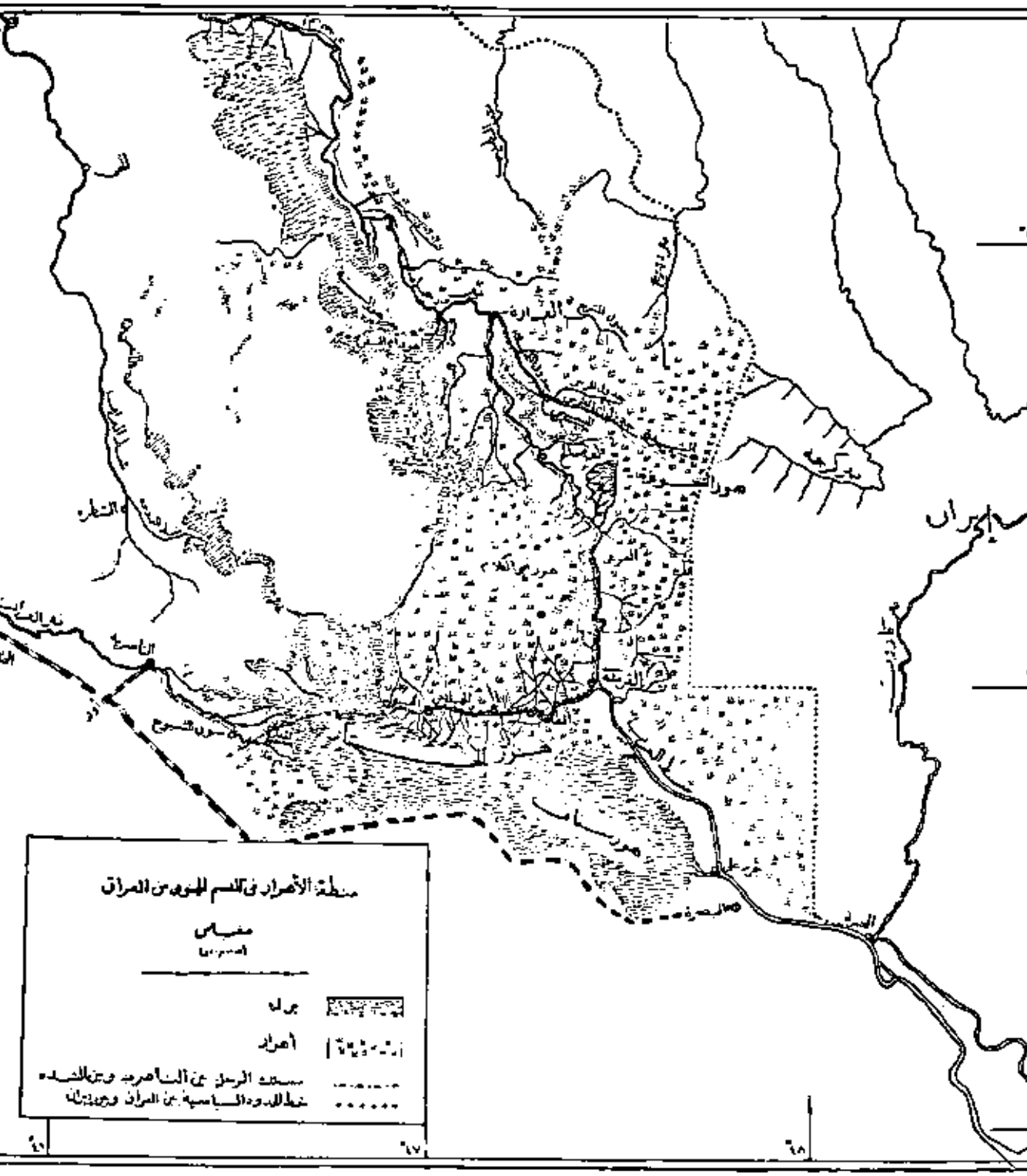
منطقة الأهوار في القسم الجنوبي من العراق
مقياس
العراق
أهوار
حدود الدول المجاورة
خط الحدود السياسية بين العراق وجيرانه
٤٧°
٤٨°